من مظاهر التجديد الأدبي في "رسائل النور"

الأدب القرآني

تمهيد

من جادل في كون بديع الزمان النورسي مجدد القرن الرابع عشر، لا يستطيع أن يدفع بأنه من مجدديه. والتجديد كما هو في حقيقته، وكما فهمه بديع الزمان، لا يقتصر على جانب دون جانب من أمور الحياة، بل التجديد الذي يشمله كل قرن يمس الحياة في شموليتها، إذ المجدد ينبغي أن يقوم "بتجديد الدين والإيمان، وتجديد الحياة الاجتماعية والشريعة، وتجديد الحقوق العامة، والسياسة الإسلامية".[1]

ولكن اجتماع هذه الوظائف في شخص واحد يكاد يكون مستحيلا، إلا أن يكون شخصا معنويا، كما يرى بديع الزمان، وعلى هذا فإن لفظ "من" في الحديث الشريف لا ينصرف إلى فرد بعينه، ولا حتى إلى جماعة بعينها، بقدر ما يتصرف إلى ذلك الشخص المعنوي الذي يكون ضمير الأمة كلها.

ولما كان الأمر كذلك، اقتنع بديع الزمان بضرورة صرف نظره التجديدي إلى جانب واحد من جوانب الحياة، وقد اختار أن يكون "التجديد في مجال المحافظة على الحقائق الإيمانية، فهي أجل وأعظم تلك الوظائف الثلاث لذا تبقى

(١) الملاحق، ملحق قسطمري، ص ١٩٦.

obeikandl.com

دوائر "الشريعة" و"الحياة الاجتماعية والسياسية" في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة بالنسبة لدائرة الإيمان".[1]

لقد اختار بديع الزمان أن يجعل من همه "إنقاذ الإيمان"، وقد وجد أن السبيل إلى ذلك صفاء المشرب، و لم يجد مشرباً صافياً صفاء لا كدر فيه غير القرآن الكريم، فرضي لنفسه وشرف بأن يكون خادما للقرآن الكريم فأفاض عليه القرآن فيوضات مست كل جوانب الحياة.

لقد عني النورسي، أول ما عني، بإعجاز القرآن وأسرار بلاغته، فهداه كل ذلك إلى مفهوم جديد للبلاغة والأدب. ومطالع "رسائل النور" يدرك أن بديع الزمان كان أديبا وناقدا من الطراز الأول، ولفهم طبيعة أي تجديد لابد من النظر إليه في سياقه التاريخي، وما أملاه النورسي من رسائل يعود معظمه إلى النصف الأول من القرن العشرين، وهي فترة كانت تعج بدعوات التجديد، ومنه التجديد الأدبي، في العالم الإسلامي كله. والآداب العربية والتركية والفارسية والآداب شاهدة على ذلك، ولكن ما تميز به بديع الزمان في دعوته التجديدية عن كثير من الدعوات، أن تلك الدعوات كانت تنطلق في تجديدها من خارج الذات، أما بديع الزمان فقد دعا وانطلق من الذات. كان التجديد في مفهوم كثير من الاتجاهات الأدبية يعني استجلاب حداثة الغرب، أما بديع الزمان فقد دعا إلى تجديد النظر في مقومات الأدب، ومن هنا عني بالجوهر، وعني سواه بالأعراض. فإذا نظرنا إلى الدعوات التجديدية في العالم العربي، مثلا، وجدنا التسابق نحو المدرستين الفرنسية والانكليزية/الامريكية، فتولد من ذلك أدب جديد، منبت عن واقعنا الحضاري وتاريخنا الأدبي، ولنا في تجربة مدرسة أبولو، وشعراء المهجر، أكبر دليل على ذلك.

---

(١) نفسه.

إن الحديث عن مظاهر التجديد الأدبي عند النورسي لا تسعه مجلدات، فضلا عن أن يوجز في عرض متواضع محدود كهذا، ولذلك فلن يكون عملي هنا غير أن أكون دالا على الطريق المؤدي إلى ذلك الأدب.

ذلك بأنه على الرغم من حرص بديع الزمان على تقريب معانيه إلى الإفهام، مما جعله يؤثر أسلوباً تميز به، هو أسلوب الحكاية التمثيلية وضرب الأمثال، وأنه جعل الإبانة من أهم أغراض الرسائل، إذ "رسائل النور تؤدي هذه الوظيفة، وفي أحلك الحالات وأشدها رهبة، وفي أحوج الأوقات وأحرجها، فتؤدي خدماتها الإيمانية بأسلوب يفهمه الناس جميعا"،[1] إلا أن الحديث عن البلاغة والأدب ليس ميسوراً فهمه دائماً، وفي كل الحالات، لكل الناس، فلذلك جاءت بعض الفصول أو المقالات يشوبها بعض الغموض، مما جعلها بحاجة إلى شروح مفصلة. وهو أمر تنبه إليه البديع ودل عليه، وعلله بقوله: "اعلم يقينا أن هذه المقالة تبدو لك غامضة مغلقة، ولكن ما الحيلة؟ فإن شأن المقدمة الإجمال والإيجاز".[2]

لم يجعل النورسي بينه وبين حضارة الغرب حجابا مستورا، يجعله يرفض كل ما يجئ من الغرب، فهو مطلع على تلك المدنية وأسرارها، ولكن تعامله معها كان تعامل الناقد البصير، لا تعامل الصبي الظمآن المنبهر أمامها، وعلى هذا لا يكون الأخذ عن الغرب محظوراً، إلا أن ذلك الأخذ يجب أن يحاط بشروط، أهمها عرض الفكر الوارد على منطق الشريعة، ومصفاة الإيمان: "إن نهر العلوم الحديثة والثقافة الجديدة الجاري والآتي إلينا من الخارج كما هو الظاهر، ينبغي أن يكون أحد مجاريه قسما من أهل الشريعة كي يتصفى من شوائب الحيل ورواسب الغش والخداع، لأن الأفكار التي

(١) سيرة ذاتية، التقديم.

(٢) صيقل الإسلام، ص ١١١.

نمت في مستنقع العطالة، وتنفست سموم الاستبداد، وانسحقت تحت وطأة الظلم، يحدث فيها هذا الماء الآسن العفن خلاف المقصود.

فلا بد إذن من تصفيته بمصفاة الشريعة".[1]

وهكذا فإن التجديد الأدبي عند بديع الزمان، خلافا للاتجاهات السائدة، لم يكن استنساخا للتجربة الأدبية الغربية، بقدر ما كان نقداً للغرب. وقد كان هذا النقد، وما تلاه من تأسيس رؤية جديدة للأدب، نابعا من معاشرة القرآن الكريم، واستغناءً بأدب القرآن عما سواه.

لقد جاء القرآن الكريم معجزة بيانية، أي أدبية، فاستظلت بظله آداب الشعوب الإسلامية، فاكتسبت من أجل ذلك رونقا و بهاء، وعمقا وأصالة. ولما انحرفت عن صفاء ذلك النبع أصابها ما أصابها من ضمور وهزال. ويحدثنا بديع الزمان عن مظاهر ذلك الضمور وأسبابه فيقول أسفا: "إنه لما انجذب الأعاجم بجاذبية سلطنة العرب فسد بالاختلاط ملكة الكلام المضري، التي هي أساس بلاغة القرآن، إذ لما تعاطى الأعاجم والدخلاء صنعة البلاغة العربية حولوا الذوق البلاغي من مجراه الطبيعي للفكر هو نظم المعاني، إلى صنعة، وهو اللفظ"[2] ويعلل ذلك بقوله: "لأن مزاج الأمة مثلما أنه منشأ أحاسيسها ومشاعرها، فإن لسانها القومي يعبر عن تلك المشاعر ويعكس تلك الأحاسيس. وحيث إن أمزجة الأمة مختلفة، فاستعداد البلاغة في ألسنتها متفاوت أيضا، ولاسيما اللغة العربية الفصحى المبنية على قواعد النحو".[3]

---

(١) صيقل الإسلام، ص ٥٣٠.

(٢) نفسه ٩٧.

(٣) نفسه.

وهكذا انتشرت العناية باللفظ وصار المعنى مسخراً له "فاتسعت المسافة بين طبيعة البلاغة، وهي كون اللفظ خادما للمعنى، وصنعة العاشقين للفظ".[1] وقد ضرب لنا مثلا فقال: "فإن شئت فادخل في "مقامات الحريري" فإنه مع جلالة قدره في الأدب، قد استهواه حب اللفظ، وبذلك أخل بأدبه الرفيع، فأصبح قدوة للمغرمين باللفظ، حتى خصص الجرجاني -ذلك العملاق- ثلث كتابيه، دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، دواء لعلاج هذا الداء".[2]

وليس معنى هذا أن بديع الزمان ينتقص من قدر اللفظ، ويعتبره من فضول القول، أو ينتصر للمعنى وحده، وكيف يكون ذلك وهو المعجب بعبد القاهر الجرجاني، حتى وصفه بالعملاق؟ إلاّ أن اللفظ لابد أن يكون منسقا مع المعنى "نعم اللفظ يزين ولكن إذا اقتضته طبيعة المعنى وحاجته.. وصورة المعنى تعظم وتعطي لها مهابة، ولكن إذا أذن بها المعنى.. والأسلوب ينور ويلمع، ولكن إذا ساعده استعداد المقصود.. والتشبيه يلطف ويجمل ولكن إذا تأسست على علاقة المقصود وارتضى به المطلوب.. والخيال ينشط ويسيح ولكن إذا لم يؤلم الحقيقة، ولم يثقل عليها، وأن يكون مثالا للحقيقة متسنبلا عليها".[3]

أسباب الانحطاط الأدبي ودواعي التجديد

الألفة داء يحجب الجمال، والعادة ستار يحجب الأسرار، والأدب يعتمد المجاز، فيكون بذلك كشفا لما وراء العادة من أسرار، فإذا تحول المجاز إلى حقيقة فقد سحره، وانطفأ نوره.

وهكذا يتجدد الأدب بتجدد المجاز، أي بالعدول عن التعبير الحقيقي الكثيف،

---

(١) نفسه، ص ٩٨.

(٢) نفسه، ص ٩٨.

(٣) نفسه، ص ٩٨٩٩.

الذي إن صلح أسلوبا للإقناع والمناظرة لم يصح أسلوبا للإبداع الأدبي، إلى التعبير المجازي الشفاف. فإذا طال الأمد، وبدأ التعبير يفقد مجازيته شيئا فشيئا ويقترب إلى الحقيقة فقد رواءه وجماله، وانتكس الأدب .

"إذ المجازات والتشبيهات إذا ما اقتطعتهما يسار الجهل المظلم من يمين العلم المنور، أو استمرتا وطال عمرهما، انقلبتا إلى "حقيقة" مستفرغة من الطلاوة والنداوة، فتصير سرابا خادعا بعدما كانت شرابا زلالا، وتصبح عجوزا شمطاء بعدما كانت فاتنة حسناء"[1] فإذا آل الأمر إلى هذا الوضع صار التجديد حتما مقضيا، وصار الانكباب على التقليد نوعا من العي والعجز.

لقد كان تشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة، وبالبحر في الكرم، إبداعاً وتجديداً يوم نُطق به أول ما نُطق ، وما زالت الألسنة تتداوله وتبليه حتى صار التعبير به ضربا من العي، وأصبح متداولا تلوكه العامة، فلم تعد له حلاوة، ولا عليه طلاوة، فصار كما يقال معنى مغسولا.

ليست رسالة الأديب إذن هي الخلق،إذ ما من خالق غير الله سبحانه، بل رسالة الأديب هي الكشف. إن العالم ملئ بالأسرار، وإن هذه الأسرار إنما تغطيها حجب الألفة والعادة، وما على الأديب إلاّ أن يستبطن الأشياء، ويكشف عنها الحجب المستورة.

الأدب القرآني

يرى بديع الزمان أنه لا يجمل بنا إلا أن يكون أدبنا قرآنيا. والأدب القرآني هو القرآن، في صورته المثال، ثم هو الأدب المهتدي بهدي القرآن. ومن أجل تجلية حقائق الأدب القرآني يلجأ بديع الزمان، في عدد من رسائل النور، إلى الموازنة

(١) صيقل الاسلام، ص ٤٠.

بين الأدب القرآني وأدب الحضارة الغربية. و لم يكف تركيزه على نقد أدب الحضارة الغربية دون غيره من الآداب، إلا وجها من أوجه دحض ما آل إليه الأمر من أن ذلك الأدب صار فتنة لأدباء العالم الإسلامي. وهكذا يبين النورسي أن "الأدب الحاضر، المترشح من أدب أوربا، عاجز عن رؤية ما في القرآن الكريم من لطائف عالية ومزايا سامية، من خلال نظرته الروائية، بل هو عاجز عن تذوقها، لذا لا يستطيع أن يجعل معياره محكا له.

والأدب يجول في ثلاثة ميادين، دون أن يحيد عنها.

ميدان الحماسة والشهامة..

ميدان الحسن والعشق..

ميدان تصوير الحقيقة والواقع..

فالأدب الأجنبي:

في ميدان الحماسة؛ لا ينشد الحق، بل يلقن شعور الافتتان بالقوة، بتمجيده جور الظالمين وطغيانهم.

وفي ميدان الحسن والعشق؛ لا يعرف العشق الحقيقي، بل يغرز ذوقا شهويا عارما في النفوس.

وفي ميدان تصوير الحقيقة والواقع؛ لا ينظر إلى الكائنات على أنها صنعة إلهية؛ ولا يراها صبغة رحمانية، بل يحصر همه في زاوية الطبيعة ويصور الحقيقة في ضوئها، ولا يقدر الفكاك منها.. لذا يكون تلقينه عشق الطبيعة، وتأليه المادة، حتى يمكن حبها في قرارة القلب، فلا ينجو المرء منها بسهولة.

ثم إن ذلك الأدب المشوب بالسفه، لا يغني شيئا عن اضطرابات الروح وقلقها الناشئة من الضلالة والواردة منها أيضا، ولربما يهدئها وينميها. وفي حسبانه أنه قد وجد حلاً، وكأن العلاج الوحيد، وهو رواياته، وهي:

في كتاب.. ذلك الحي الميت.

وفي سينما.. وهي أموات متحركة.

وفي مسرح.. الذي تبعث فيه الأشباح وتخرج سراعا في تلك المقبرة الواسعة المسماة بالماضي!.

هذه هي أنواع رواياته.

وأنّى للميت أن يهب الحياة!.

وبلا خجل ولا حياء وضع الأدب الأجنبي لسانا كاذبا في فم البشر..

وركب عينا فاسقة في وجه الإنسان.. وألبس الدنيا فستان راقصة ساقطة.

فمن أين سيعرف هذا الأدب، الحسن المجرد.

حتى لو أراد أن يري القارئ الشمس، فإنه يذكره بممثلة شقراء حسناء

وهو في الظاهر يقول: "السفاهة عاقبتها وخيمة، لا تليق بالإنسان"

ثم يبين نتائجها المضرة..

إلا أنه يصورها تصويرا مثيرا إلى حد يسيل منه اللعاب، ويفلت منه زمام العقل، إذ يضرم في الشهوات، ويهيج النزوات.. حتى لا يعود الشعور ينقاد لشيء".[1]

إن مفهوم الأدب مرتبط بطبيعته وبرسالته وبأدبيته على السواء.

ليس الشأن إذن في ميادين الأدب وموضوعاته، إذ ميادين الأدب وموضوعاته وأغراضه قد تكون متشابهة، بل قد تكون واحدة، ولكن الشأن كله في الرؤية التي يصدر عنها ذلك الأدب، وفي الأسلوب الذي يعبر به عن تلك الرؤية أيضا

(١) الملاحق ملحق قسطموني، ص ١٨٧١٨٨ قارن موقف النورسي في السينما بما قالته الممثلة المعتزلة نسرين (المجتمع ع ١٣٤١ ذو القعدة ١٤١٩هـ مارس ١٩٩٩م).

وإذا كان النورسي يميل إلى التعريف عن طريق النفي، لا الإيجاب، وذلك بنفي عدد من الصفات عن الأدب الغربي، فذلك يعني أن الأدب الحق، الأدب القرآني، هو الذي يمتلك تلك الصفات ويتحقق بها. ثم إن الأدب الذي ينعي النورسي أسلوبه وطريقته هو ذلك الأدب الذي أطلق عليه د. أحمد بسام ساعي اسم "السامرية الجديدة". فهو أدب يزعم الإصلاح، ولكنه باسم الواقعية، وباسم تصوير الحقائق كما هي ، يميل إلى أسلوب يزين الانحراف، ويحبب السلوك المشين، ويكون لذلك الأسلوب فعل السحر في إثارة الغرائز، وإضرام الشهوات، وتهييج النزوات.

"أما أدب القرآن الكريم، فإنه لا يحرك ساكن الهوى، لا يثيره، بل يمنح الإنسان الشعور بنشدان الحق وحبه، والافتتان بالحسن المجرد، وتذوق عشق الجمال، والشوق إلى محبة الحقيقة.. ولا يخدع أحداً ، فهو لا ينظر إلى الكائنات من زاوية الطبيعة، بل يذكرها صناعة إلهية، صبغة رحمانية، دون أن يحير العقول.

فيلقن نور معرفة الصانع..

ويبين آياته في كل شيء.."[1]

وهذه الخصائص واضحة في القرآن الكريم جلية، فقصصه هو القصص الحق، والقصة القرآنية واقعية في نقل الأحداث، صادقة كل الصدق في تصوير المشاعر، وعكس أحاسيس النفس في مرآة الحق، ولكن واقعية الأدب القرآني واقعية مثالية، إن صح التعبير، تعمل على تطهير النفس، وتهذيب الأخلاق، وتقويم السلوك، وتجعل الأرواح مشرئبة إلى عالم الجمال الكامل، والكمال الجميل.

وإذا كان الأدب والبلاغة، من حيث تأثير الأسلوب، يورثان إما الحزن وإما

(١) نفسه، ص ١٨٩.

الفرح، فإن كلا الأدبين -القرآني والغربي- يورثان حزنا مؤثرا، أو فرحا مؤثرا، إلا إنهما لا يتشابهان. إن حالتي الحزن والفرح اللتين يتحدث عنهما بديع الزمان، هما حالتا القبض والبسط، بتعبير النقاد والفلاسفة المسلمين قديما.[1]

"إن آداب المدنية وبلاغتها مغلوبة أمام الأدب القرآني وبلاغته. والنسبة بينهما أشبه ما تكون ببكاء يتيم فقد أبويه، بكاء ملؤه الحزن القاتم واليأس المرير، إلى انتشاء عاشق عفيف حزين على فراق قصير الأمد، غناء ملؤه الشوق والأمل..".[2]

"فما يورثه أدب الغرب هو حزن مهموم، ناشئ عن فقدان الأحباب، وفقدان المالك، ولا يقدر على منح حزن رفيع سام.. فهذا الشعور المليء بالأحزان والآلام يهيمن على كيان الإنسان، فيسوقه إلى الضلال، وإلى الإلحاد، وإلى إنكار الخالق.. حتى يصعب عليه العودة إلى الصواب، بل قد لا يعود أصلا.

أما أدب القرآن الكريم فانه يمنح حزنا ساميا علويا، ذلك هو حزن العاشق، لا حزن اليتيم.. هذا الحزن نابع من فراق الأحباب، لا من فقدانهم".[3]

وفي هذا الكلام رد على الذين يزعمون أن الأدب الإسلامي أدب مباشر لأنه مطمئن لا يستهلك أسباب التوتر، والأدب الرفيع لا يتولد عن التوتر.

إن توتر الأدب القرآني توتر بناء، لا يدمر صاحبه، وللنورسي قطعة فنية جميلة تعبر أصدق تعبير عن هذا المفهوم الذي يستل من قلب الليل نورا، ويوقد من الظلمات سراجا وهاجا. عنوان هذه القطعة: (الداعي) وفيها يقول :

---

(١) انظر على سبيل المثال منهاج البلغاء حازم القرطاجني.

(٢) الكلمات، ص ٤٧٦-٤٧٧.

(٣) الملاحق، ص ١٨٩.

"قبري المهدم يضم تسعا وسبعين جثة لسعيد ذي الآثام والآلام
وقد غدا شاهد القبر تمام الثمانين
والكل يبكي معا لضياع الإسلام
فيئن قبري المليء بالأموات مع شاهده
وغدا أنطلق مسرعا إلى عقباي
وأنا على يقين أن مستقبل آسيا بأرضها وسمائها
سيستسلم ليد الإسلام البيضاء
إذ يمينه يمن الإيمان
يمنح الطمأنينة والأمان للأنام".[1]

وكما أن الحزن قسمان، فكذلك الفرح والسرور قسمان.

"الأول: يدفع النفس إلى شهواتها، هذا هو شأن آداب المدنية في أدب مسرحي وسينمائي وروائي.

أما الثاني: فهو فرح لطيف برئ نزيه، يكبح جماح النفس ويلجمها، ويحث الروح والقلب والعقل والسر على المعالي وعلى موطنهم الأصلي، على مقرهم الأبدي، على أحبتهم الأخرويين. وهذا الفرح هو الذي يمنحه القرآن المعجز البيان الذي يحض البشر ويشوقه على الجنة والسعادة الأبدية وعلى رؤية جمال الله تعالى".[2]

الإذعان، لا الالتزام

مع هيمنة المدارس الأدبية الغربية على آداب الشعوب الإسلامية، تسلطت على الأدباء والنقاد مجموعة من الأفكار التي صارت عندهم مبادئ لا يجوز الحياد

(١) هي في "اللوامع" ضمن "الكلمات، ص ٣٣٧" أعيد نشرها في سيرة ذاتية، ص ٤٨٨. وقد شرح النورسي هذا الكلام بنفسه، في الهامش، فلينظر هناك.

(٢) الكلمات، ص ٤٧٧.

obeikandl.com

عنها، وقد ظل ذلك كذلك عقودا من الزمن، ومن تلك الأفكار فكرة "الالتزام" التي ظهرت مع الواقعية الاشتراكية، كما ظهرت عند وجودية سارتر، ولاسيما في مؤلفه الشهير: "ما الأدب؟"

بيد أن فكرة الالتزام التي أريد من ورائها تأكيد الأدب الرسالي، مواجهة لمدرسة الفن للفن، أسيء استعمالها، ولاسيما في المعسكر الاشتراكي، وعلى عهد جدا نوف بخاصة، فتحول "الالتزام" إلى "إلزام"، وانتحر الأدب بانتحار الفنانين، حقيقة مثل مايا كوفسكي، أو مجازاً مثل باسترناك.

وقد كثر الجدل بين أنصار هذه الاتجاه أو ذاك، وكثر الحديث عن العلاقة بين "الالتزام" و"الحرية"، وما ذلك إلا لأن "الالتزام" كما نادى به أصحابه لا يحتكم إلى الحق بقدر ما يحتكم إلى الهوى، هوى الفرد أو هوى الجماعة لا فرق، ولا يحتكم إلى الخالق الغني المتعال، بل يحتكم إلى المخلوق الضعيف المقيد بالأهواء والنزعات، ولذلك دعا النورسي إلى أن تكون الكلمات إذعاناً لا التزاما، أي إذعانا للحق، وتعاليم الحق، وما الإسلام إلا الإذعان المطلق لإرادة الله تعالى، وذلك الإذعان المطلق هو الذي يحقق الحرية التي يتنفسها الأديب، ولا يستطيع أن يحيى بدونها. ولذلك كان للكلمات التي سطرها النورسي فعل السحر في النفوس، إذ "ما يفعله سطر واحد منها من التأثير يعادل صحيفة كاملة من غيرها، وما تحمله صحيفة واحدة من قوة التأثير يعادل تأثير كتاب كامل آخر".[1]

وكان الأسلوب الأثير عند النورسي هو ما عرف به من "ضرب الأمثال"، وهو ما يعتبره نعمة من نعم الله تعالى، فقال: "أنعم علي سبحانه شعلة من "ضرب الأمثال" التي هي من أسطع معجزات القرآن وأوضحها، إنه مهما يظهر

(١) سيرة ذاتية، ص ٢٤٢.

من قوة التأثير، وبهاء الجمال في أسلوب كتاباتي، فإنها ليست مني، ولا مما مضغه فكري، بل هي من لمعات "ضرب الأمثال" التي تتلألأ في سماء القرآن العظيم، وليس حظي فيه إلا الطلب والسؤال منه تعالى، مع شدة الحاجة والفاقة، وليس لي إلا التضرع والتوسل إليه سبحانه مع منتهى العجز والضعف.

فالداء مني والدواء من القرآن الكريم".[1]

الأدب الكوني

الأدب القرآني ليس أدبا قومياً، ولا إقليمياً، ولا يخص جنساً دون جنس، ولا أمة دون أمة، بل هو أدب كوني، يتوجه إلى الإنسان أينما كان، وكيفما كان، فلذلك آثاره جلية على فطاحل الأدباء من غير المسلمين، أيضا. بل هو يتجاوز، في تعامله مع الكون والحياة، الإنسان إلى ما خلق الله من الطبيعة والنبات والحيوان.. إنه الأدب الذي يؤول إلى موقف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من جبل أحد، وقوله عليه السلام: "هذا جبل يحبنا ونحبه".

ولما كانت لغة الأدب لغة مجاز، تدل على الحقائق الجوهرية السامية، وجدنا ذلك القري في آثار بعض أدبائنا، ومما ينسب للمجنون:

فأجهشت للتوباد حين رأيته وكبّر للرحمن حين رآني

وقصيدة ابن خفاجة الأندلسي في الجبل أشهر من أن يفصل فيها القول.

هذا الأدب الكوني هو الذي تجلى في رسائل النور إبداعا وموقفا. ففي "رسالة تستنطق النجوم"[2] يقدم النورسي قطعة فنية بديعة، ويبدؤها بقوله:

---

(١) المكتوبات، ص ٤٨٦-٤٨٧؛ سيرة ذاتية، ص ٢٤٣.

(٢) الكلمات، ص ٢٤٦-٢٤٧.

"كنت يوما على ذروة قمة من قمم جبل "جام" نظرت إلى وجه السماء في سكون الليل، وإذا بالفقرات الآتية تخطر ببالي، فكأنني استمعت خيالا إلى ما تنطق به النجوم بلسان الحال"،وتسيح بنا هذه الرسالة في عالم النجوم، حيث تتحول كائنا حيا ناطقا، يدعونا بديع الزمان إلى الإصغاء إليها قائلا:

"واستمع إلى النجوم أيضا إلى حلو خطابها اللذيذ
لترى ما قرره ختم الحكمة النيرة على الوجود
إنها جميعا تهتف وتقول معا بلسان الحق :
نحن براهين ساطعة على هيبة القدير ذي الجلال
نحن شواهد صدق على وجود الصانع الجليل وعلى وحدانيته وقدرته
نتفرج كالملائكة على تلك المعجزات اللطيفة التي جملت وجه الأرض".

وهكذا إذن تنساب هذه القطعة البديعة، متجاوزة الجمال الظاهري الذي طالما سحر الرومانسيين إلى الجمال الحق الشامل، جمال الخلق الدال على جمال الخالق.

ولكن كل ذلك في نهاية الأمر إنما يتوجه به إلى الإنسان الملبي نداء الفطرة في كل مكان فتقول النجوم :

"هكذا نبين مائة ألف برهان وبرهان، بمائة ألف لسان ولسان، ونُسمعها إلى من هو إنسان حقا.

عميت عين الملحد لا يرى وجوهنا النيرة، ولا يسمع أقوالنا البينة... فنحن آيات ناطقة بالحق".

وقد خص بديع الزمان موضوع (الجمال) بمبحث مفصل بديع في (الشعاعات) لا يسمح الوقت بالوقوف عنده، فليراجع.